المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن والعشرين

١ مايو (ايار) سنة ١٩٠٣ — الموافق ٣ صفر سنة ١٣٢١

عمران العراق

(١) شرائع حمورابي

سننشر في مكان آخر من هذا الجزء خطبة للسر وليم ولكس عن العراق وما يمكن ان يفعل فيهِ حتى يعود العمران اليهِ ولتدفق الخيرات منهُ كما كانت تتدفق على عهد سكانهِ الاولين من البابليين والاشوريين. وقد كُشف في تلك البلاد منذ عهد قريب كتابات قديمة فيها شرائع احد ملوكها الاقدمين المسمّى حمورابي كما ذكرنا في الجزء الثاني من هذه السنة . ورأينا الآن في جريدة التيمس مقالة مسهبة عن هذه الشرائع فلخصناها واضفنا اليها ما تتم بهِ الفائدة

قال حمورابي في فاتحة شرائعهِ . " انا حمورابي الملك المجيد عابد الهي سننتُ شريعةً لنشر العدل في البلاد للشاهد والمدعي والمدعى عليهِ لكي يبيد الظالم وينُصَف المظلوم" . هكذا بُدئت اعجب كتابة تاريخية كُشفت حتى الآن في اطلال المدن القديمة . وحينما نقرأ ما كتبهُ هذا الملك الذي يجب ان يحسب ابًا للشرائع والقوانين في كل زمان ومكان يعسر علينا ان نصدّق ان شرائعهُ هذه على ما فيها من الدقة سُنّت قبل زمان موسى بالف سنة وقبل شرائع مانو وغيرهِ من المشترعين الاقدمين بل هناك ادلة كثيرة على ان بعض الشرائع التي جمعها كانت معروفة قبل زمانهِ

والاثر الذي وجدت هذه الشرائع مكتوبة عليهِ عمود من الصوان الاسود طولهُ ثماني اقدام اكتشفهُ المسيو دومورجان في خرائب السوس في غرّة العام الماضي فصوّرهُ وقرأهُ الدكتور شيل الكتابة التي عليهِ وترجمها ثم نُشرت بامر نظارة المعارف الفرنسوية . وعلى العمود صورة هذا الملك واقفًا امام معبودهِ والمعبود جالس على عرش واللهب منتشر من منكبيهِ في

شكل جناحين وهو يملي على الملك هذه الشرائع . وفي رأي الدكتور شيل ان هذه الصورة هي صورة اله الشمس ولكن المرجع انها صورة الاله بل او اللو رب الجبل العظيم ويلقَّب سيد فاتحة الشرائع بالاله العظيم ملك الارواح ورب السماء والارض ويسمَّى هيكلهُ بيت الجبل . وكان البابليون يعتقدون ان الاله "بل" يسكن جبل الارض و يعطي الشرائع للناس ويلبس على صدرهِ لوحاً فيهِ علم الغيب

والكتابة منقوشة على العمود في تسعة واربعين حقلاً فيها نحو ثلاثة آلاف سطر وهي سنيَّة متقنة جداً من الكتابة التي بقي ملوك بابل يستعملونها الى ما بعد اختراع الخط المعلَّق بزمن طويل كما يرى في كتابة الملك سرجون الثاني التي تاريخها سنة ٧٢١ قبل المسيح وهي الآن في متحف برلين

وتبتدئ الكتابة بذكر القاب الملك وتنصيب الآلهة لهُ ورفع بابل الى مقام العاصمة ونحو ذلك من الاخبار التي لولا مايتلوها من نص الشرائع لعدَّت وحدها من اهم الكتابات التي كُشفت حتى الآن لكثرة ما فيها من الاخبار التاريخيَّة كقولهِ " انا مسكّن القبائل ومرشد الشعوب الذي ردَّ الى مدينة اشور صنمها الكريم وجعلهُ يشرق ببهائهِ الملكُ الذي جعل حلى الالهة استار تشرق في هيكل نينوى " . فتبيَّن من ذلك ان اشور ونينوى كانتا معاصرتين لهُ

والشرائع تملأ تسعة عشر حقلاً مقسومة الى ٢٨٠ فصلاً وقد قال في مقدمتها " اقمت شريعة العدل في البلاد فاسعدتُ بها العباد " . هذا هو الاساس الذي بنى عليهِ الناس شرائعهم وبهِ نجحت الامم وسارت الممالك . ويجب ان يبدل القول القائل " العدل اساس الملك " بقول اصحّ منهُ واعمّ وهو العدل اساس العمران . العدل عمَّر بلاد العراق وقد خربت لما زال منها . ثم بيَّن السبب الذي دعاهُ الى كتابة هذه الشرائع على عمود فقال انهُ كتبها عليهِ ليراها المظلومون ويطلبوا الانصاف من الظالمين ونصبهُ في هيكل مُردخ في بابل ليراهُ الجميع . ويظهر من رسائلهِ التي وجدت هناك وهي الآن في دار التحف بمدينة لندن ان قولهُ هذا ليس من قبيل الدعوى بل كان ينصف المظلوم من الظالم حقيقةً ويهتم باضعف رعاياهُ كما يهتم باعظمهم . وقد كتب شرائعهُ بلغة بسيطة جداً خالية من كل تعقيد وابهام حتى يفهمها الفقراء والضعفاء ولذلك حقَّ لهُ ان يقول " اني كنت لشعبي كالاب لبنيهِ "

والشرائع تتناول كل معاملات الناس من الفرائض الدينية الى اجور العمال . ولها ثلاثة اصول تبنى عليها الاصل الاول مسئولية الانسان فيجازى بمثل ما فعل مع تخفيف الجزاء بالفدية . والثاني الاعتماد على القسَم بالله كما في الشريعة الموسوية . والثالث لزوم المستندات المكتتبة . فان كل المعاملات التجارية والحقوقية كانت تقتضي صكوكاً مكتوبة ومختومة فلا يسلِّم احدٌ

مالاً او بضاعة لغيره ما لم يأخذ منهُ وصلاً مختوماً بختمهِ تذكر فيهِ كمية المال ومفردات البضاعة والشرائع المختصة بالارض على غاية الاسهاب كما هو الواجب في البلدان الزراعية . من ذلك ان الارض يجب ان تزرع واذا اهمل صاحبها زرعها يبقى مضطرًا ان يدفع المال عنها كما يُدفع المال عن الاراضي المجاورة لها . واذا تلف الزرع بسبب آفة جوية أُعفي صاحبهُ من ربا ما استدانهُ عليهِ من المال . ومن اتلف ارضًا بسبب ثرعة حفرها لجر الماء الى ارضهِ وجب عليهِ ان يدفع لصاحبها قيمة ما اتلفهُ

وشرائع التجارة على غاية الاهمية كما ينتظر من بلاد راجت فيها التجارة ولاسيما ما يتعلَّق منها بالعملاء والذين يجولون من مكان الى آخر لبيع البضائع . ومن البنود التي وردت في شأنهم ما يأتي : اذا ادَّعى بائع من هؤلاء الباعة ان العدو هجم عليهِ وسلب منهُ البضاعة ولكَّد دعواهُ بقسم يطلَق سراحهُ واذا سلَّم تاجر بضاعة الوكيل يتَّجر بها وجب على الوكيل ان يكتب ما يستلمهُ من النقود ويسلمها للتاجر ويستلم منهُ وصلاً مختوماً بختمهِ . واذا وقعت خصومة بين اثنين او اكثر وجب على كلٍّ من المتخاصمين ان يبرز كل ما عندهُ من الشهود والمستندات

وكان بيع الخمر عندهم خاصًّا بالنساء ولا يجوز لهنَّ بيعها الَّا في مكان خاص بذلك ومن خالفت هذا الامر فعقابها الموت . وهذا عقاب بائعة الخمر اذا سكر عندها الناس واختصموا ولم تسلمهم للقضاء

وكان للمرأة شأن رفيع عندهم كما يظهر من البنود التالية . اذا اشار رجل بيدهِ الى امرأة غيرهِ ولم يبرر نفسهُ يكوى في جبينهِ . لا يتم عقد الزواج الَّا بتسجيلهِ . يجوز للرجل ان يطلق زوجتهُ اذا كانت عاقرًا والَّا لزمتهُ نفقتها وتنفقة اولادها وان يعطيها من ميراثهِ نصيب ابن من ابنائهِ ويجوز لها ان تتزوج رجلاً آخر . يجوز للمرأة ان تطلب طلاقها من زوجها فان طلقها فبهِ والَّا فلا واذا كانت مريضة جاز لهُ ان يتزوج غيرها ولكن لا يجوز لهُ تطليقها

وشرائع الملك كثيرة وهي مبنيَّة على نظام المساواة وحفظ حقوق الضعفاء . مثال ذلك ما جاء في الكلام على الارملة التي تتزوج وهو

اذا ارادت ارملة اولادها قصَّر ان تتزوج وجب عليها ان تستأذن القاضي واذا اذن لها وجب عليهِ ان يسلم زوجها الثاني بيت زوجها الاول وممتلكاتهِ كلها ويأخذ عليهِ صكًّا بها مشترطاً عليهِ ان يعتني بها وباولاد زوجهِ من زوجها الاول ويحفظ لهم املاكهُ ولا يجوز لهُ ان يبيع شيئًا منها وان باع يلزم المشتري رد ما اشتراهُ ويخسر ثمنهُ

وكانت المحكمة في الهيكل العظيم وهو في قلب المدينة وهناك كانت خزينة الحكومة التي تدفع منها فدية الاسرى من رؤساء الجند

ثم قابل الكاتب شريعة حمورابي بشريعة موسى وبيَّن وجوه الاتفاق بينهما مثال ذلك في شريعة حمورابي اذا ضرب انسان آخر في خصام وجرحهُ واقسم انهُ لم يضربهُ عن قصد يدفع اجرة الطبيب . وفي شريعة موسى " اذا تخاصم رجلان فضرب احدهما الآخر بحجر او بلكمة ولم يقتل . . . يكون الضارب بريئًا الَّا انهُ يعوض عطلتهُ وينفق على شفائهِ " . ومن يشتم اباهُ يعاقب في الشريعة البابلية بقطع يديهِ وفي الشريعة الموسويَّة بالقتل . واذا نطح ثور رجلاً او امرأةً فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمهُ في شريعة موسى واما صاحبهُ فيكون بريئًا ولكن اذا كان ثورًا نطَّاحًا من قبلُ وقد أُشهِدَ على صاحبهِ ولم يضبطهُ فقتل رجلاً او امرأةً فالثور يرجم وصاحبهُ ايضًا يقتل ان وُضعتْ عليهِ فدية يدفع فداء نفسهِ كل ما يوضع عليهِ . وكذلك في شريعة حمورابي يكون صاحب الثور بريئًا اذا نطح انسانًا وقتلهُ واما اذا نطح انسانًا وعرف صاحبهُ بذلك ولم يكسر قرنيهِ او لم يربطهُ لكي لا يخرج من دارهِ ثم نطح انسانًا آخر وقتلهُ وجب عليهِ ان يدفع ثلاثين شاقلاً من الفضة

ومن رأي الكاتب ان الشريعة الموسوية استمدَّت بعض اصولها من الشريعة البابليَّة لاسيما وان سلطة ملوك بابل كانت منتشرة في فلسطين قبل كتابة الشريعة الموسوية وعنده ان اسرة حمورابي عربيَّة الاصل . فالعرب هم الذين وضعوا تلك الشريعة

(٢) اصل اهالي بابل

بابل او العراق على ضفاف الفرات ودجلة في الدلتا المكوَّنة من طينهما وسننشر رسم البلاد كلها مع خطبة السر وليم ولككس . وقد كان بحر فارس في قديم الزمان ممتدًّا شمالاً وحسب بعضهم انهُ يتأخَّر جنوبًا اكثر من مئة قدم كل سنة بدليل ان مدينة المحمرة كانت على ميل واحد من البحر في زمن الاسكندر المكدوني فصار بعدها عنهُ سنة ١٨٣٥ سبعة واربعين ميلاً اي بلغ انحسار ماء البحر ٤٦ ميلاً في ٢١٦٠ سنة او نحو ١١٥ قدمًا كل سنة . والمرجح ان متوسط انحسار الماء لم يزد على مئة قدم في السنة من السنين الغابرة . ويعرف الآن ان مرفأ المملكة الكلدانيَّة القديمة كان مدينة اريدو حيث اخرائب المعروفة بالنواويس وهي الآن على مئة وثلاثين ميلاً من شاطئ البحر . او ٤٠٠ ٦٨٦ فقد كانت مرفأً لبلاد الكلدان قبل المسيح بستة آلاف وثمانمئة واربع وستين سنة اذا صحَّت القاعدة المتقدمة وهي ان انحسار الماء نحو قدم كل سنة

وعلى ثلاثين ميلاً من اريدو شمالاً خرائب مدينة اور المذكورة في التوراة باسم اور الكلدانيين ولا تزال انقاض هيكلها الى الآن واسمهُ المقيَّر اي المشيد بالقار ويظن الدكتور

يتبرس ان قوماً من اهالي (نبور) نفار شمالي بابل هاجروا اليها وبنوها على رمال الصحراء قبلما صارت الارض التي بين الفرات ودجلة صالحة للسكن . ومن نبور واريدو نشأ العمران البابلي وانتشر في المسكونة . قال الاستاذ سايس ويسمّى سكانها الاصليون باسم السماريين وكانوا يتكلمون لغة ممزوجة من لغات مختلفة وهم اوجدوا عمران بلاد بابل انشأوا مدنها وبنوا هياكلها واستنبطوا كتابة صورية جُزمت الكتابة السفينيّة منها وعلّموا جيرانهم الساميين مبادئ العلوم والفنون . ويدلّك على قدم عمرانهم ورسوخ قدمهِ ان عمران غربي اسيا كان جارياً بلغة السماريين وكتابتهم . ومهما كانت قبيلة الكاتب وامتهُ لم يكن يعبّر عن افكارهِ اذا اراد التعبير عنها كتابة الاّ بلغة السماريين وحروفهم

ومن السماريين تعلّم الساميون سكن المدن فان الكلمة التي معناها مدينة في اللغة العبرانية وهي الو اوأهل معناها الاصلي خيمة . والكلمة التي معناها قصر وهي هيكل مأخوذة من السمارية فانها فيها اگل اي بيت كبير

ثم كثر الساميون في العراق وامتزجوا بالسماريين سكان البلاد الاصليين وامتزجت لغتهم بلغتهم فصاروا شعباً واحداً وصارت لغتهم واحدة اي مزيجاً من اللغتين الاصليتين . واصلح الساميون ما ورثوهُ من السماريين واختزلوا كتابتهم . وبلغت الكتابة حدها من الاتقان على المرجح في بلاط الملك سرجون وهو اول ملك انشأ مملكة ساميّة في اسيا . ويستدلّ ممّا قالهُ عنهُ المؤرخون البابليون انهُ كان قبل المسيح بثلاثة آلاف وثمانمئة سنة وامتدّت سطوتهُ الى بحر الروم غرباً او الى جزيرة قبرص . وخلفهُ ابنهُ نرام سن ووصل في غزواتهِ الى جبل سينا واستخرج النحاس منهُ وكانت بلاد الشام خاضعة لهُ

وكثر الساميون في العراق وجاءهُ العرب وتغلبوا عليهِ وكان ملوكهُ منهم في زمن ابرهيم الخليل كما يظهر من اسمائهم المحفوظة الى الان . وكان الكتّاب البابليون يسمونهم باسمائهم العربيّة ويترجمونها الى اللغة البابليّة . وفي ذلك الزمن جاء امير اسمهُ كلدة ونزل في بطائح الفرات ونشأ من نسلهِ الملك مردخ بلادان ملك بابل فسميت البلاد باسم قبيلتهِ بلاد الكلدانيين لانهُ حارب الاشوريين ومنعهم من التسلّط على العراق

ثم جاء على البلاد اقوام من جبال عيلام وملكوها وهم الذين سمّاهم استرابون المؤرخ باسم الكوسان فصار اهالي بابل اخلاطاً من السماريين والساميين والكوسانيين ومتى اختلطت الامم قوي نسلها ولذلك فاق عمرانُ بابل عمران نينوى . ووجد البابليون في ارضهم في خصبها الطبيعي وموقعها الجغرافي ما حملهم على اتقان الزراعة والتجارة والعلوم والفنون فكانوا

اهل زراعة وتجارة ووضعوا الهندسة والحساب لكي يحسنوا ري ارضهم وحفظ تجارتهم وركبوا بحر فارس وداروا حول بلاد العرب . وكانت بلادهم سهلاً لا حجارة فيه فبنوا بيوتهم باللبن المجفف في الشمس او المحروق بالنار وسقفوها بجزوع النخل وطلوها بالشيد ونقشوها وزوقوها فنشأت عندهم صناعة البناء وصناعة النقش

ولقلة الحجارة في بلادهم صاروا يحتفظون بكل حصاة يجدونها وينقشونها ويصنعون منها ختماً يختمون به ما يريدون توقيعهُ اما كتاباتهم فكانوا يكتبونها على اللبن والاجر فكانت ابقى من القرطاس

(٣) معاملاتهم المالية

لو أُرسل رجل مثل لورد كرومر سفيراً الى مدينة بابل في عهد ملوكها الاولين وطُلب منهُ ان يخبر دولتهُ عن احوالها وانشأ في ذلك تقريراً سهلياً كما ينشئُ الآن عن القطر المصري لبدأ تقريرهُ بوصف احوالها المالية لان المال المقياس الحقيقي لتقدم الممالك . وها نحن نجري مجراهُ ونلخص هذا الفصل عن احوال البابليين الماليَّة لانهُ يُستدلُّ منها على تقدُّمهم في العصور الغابرة وعلى ما تحتملهُ بلادهم من التقدُّم لو أُصلحت ادارتها

وهذا الفصل نلخصهُ عمَّا كتبهُ الاستاذ سايس حديثاً في كتابهِ عن بابل واشور قال

كان لاقراض الدراهم المقام الاول بين الاعمال المالية التي كان البابليون يتعاطونها فانهُ كان من اربح اعمالهم ولم يكن احد يأنف من تعاطيهِ مهما كان مقامهُ رفيعاً حتى اولاد الملوك كانوا يدينون المال ربًا فاحش ويرتهنون املاك المدينون وكانوا يفعلون ذلك على يد وكلائهم ولكن اذا وقع خلاف بينهم وبين المدينون فهم المطالَبون لدى القانون لا الوكلاء

والسبب الاول للدين في ما يظهر اضطرار الملوك الى جمع الضرائب للانفاق على جيوشهم قبلما تباع غلة الارض فكان المموَّلون يضطرون ان يقترضوا ما يوفوا بهِ مال الحكومة كما يفعل الفلاحون في مصر الآن

ونشأت عندهم بيوت مالية دامت مئات من السنين مثل بيت اجيبي فانهُ نشأ قبل ايام سنحاريب ودام الى ايام داريوس فكان مثل بيت روشيلد في هذا العصر . كان يقرض المال للمملكة وللتجار ويوكَّل عن الناس في الاشغال والدعاوى وتودع عندهُ الصكوك والعقود ولا يزال كثير من صكوكهِ ومفاتيحهِ وحججهِ محفوظاً الى الآن . وكان اهل بابل يوفون اصل الدين ورباهُ في زمن الموسم او يقسطونهما اقساطاً شهريَّة او يقسطون الربا ويتركون الاصل حتى يدفع كلهُ دفعةً واحدة . واختلف مقدار الربا عندهم فكان اولاً عشرين في المئة ثم قلَّ رويداً رويداً

حتى بلغ في عيد نبوخذنصر عشرة في المئة ثم قلّ عن ذلك حتى بلغ اثنين في المئة لكن كان هذا في زمن ضعف بابل وقلة الطلب على النقود حتى ان واحداً من بيت اجيبي اقرض رجلاً وامرأتهُ نقوداً من غير ربا مشترطاً عليهما ان يوفياهُ الاصل حينما تسود السكينة على البلاد وكان الدائن يرتهن املاك المديون ضماناً لدينهِ ويُشهد عليهِ الشهود مثال ذلك صك كُتب

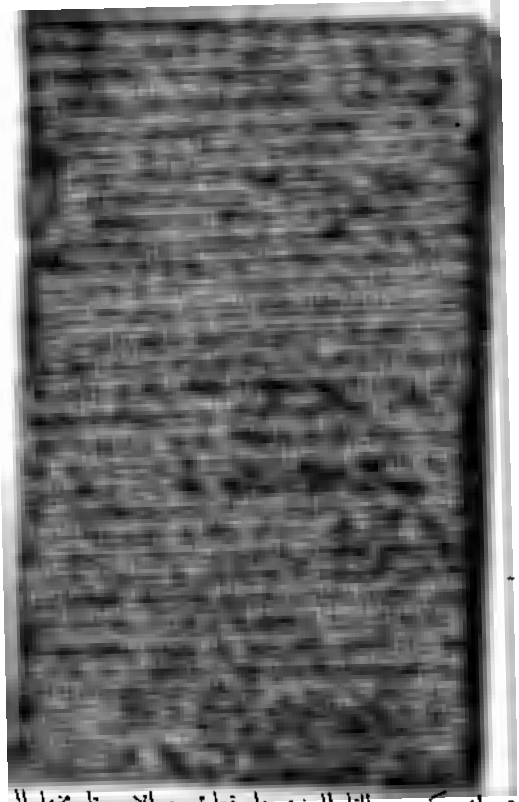

صورة صك مكتوب بالقلم السفيني على قطعة من الاجر تاريخها اليوم الثامن من شباط في السنة التي ارتقى فيها نريغلاسر ملك بابل الى عرش الملك وعليهِ اسماء الشهود

في زمن الملك نبونيدس عن مال استدين من واحد من بيت اجيبي وهذه ترجمتهُ " منا من الفضة مُلك ندين مردخ بن اقصى بعل بن نورسن استلمهُ نبوبلاداني بن ندين سمي وبودعرت بنت سمس ابوس في شهر تسري وتعهدا بدفع المال ورباهُ ورضا عند ندين مردخ بستانهما الاعلى المجاور لبستان سم يكين بن سانبوسو وبستانهما الاسفل المتاخم بيت سير

وهو مزروع نخلاً واذا عجزا عن ايفاء هذا الدين فللدين مردخ الحق الاول في هذين البستانين لا يحق لاحد ان يمتلكهما قبلما يستوفي الدين ووباهُ . وفي شهر تسري يثمن التمر الذي في النخل بسعره الجاري في مدينة سخرين ويأخذهُ ندين مردخ بدل الربا . والمديون استدان المال لايفاء الضريبة المفروضة عليهِ لاجل ابتياع الاسلحة لجنود الملك. شهد بذلك نبوبل سونو بن بواخي بن داهق ونبودني ابوس بن كنونة ونبوزيرا اوسابسي بن سمس بن بزوزو ومردخ ايرا بن ندين والكاتب بعل الدين بن بعل يخير بن ديبو كتب في مدينة سخرين في الثامن والعشرين من شهر ايار في السنة الثالثة لنبونيدس ملك بابل "

وكانت نقودهم من الذهب والفضة كانوا يتعاملون بها وزناً في اول الامر وكانت نسبة الذهب الى الفضة عندهم في عهد نبوخذنصر كنسبة ١١ الى ١ اي ان المثقال من الذهب يساوي احد عشر مثقالاً من الفضة ثم زادت نسبة الذهب الى الفضة قليلاً في السنة الحادية عشرة من ملك نبونيدس خليفتهِ فصارت مثل ١٢ الى ١ . وكانت معايير الذهب والفضة واحدة وهي الوزنة وتساوي ٦٠ منًا والمنا يساوي ستين شاقلاً . وقيمة الشاقل من الفضة ١٥ غرشاً مصريًا فقيمة المنا تسعة جنيهات وقيمة الوزنة ٤٥٠ جنيهاً . واستعملوا النحاس ايضاً في معاملاتهم ولكن استعمالهُ لم يكن قديماً بل حدث في آخر زمان بابل . وكان اعتمادهم في المعاملات على الفضة وعلى المنا لا على الوزنة ولا على الذهب فهو كان المقياس وقد حُدِّد وزنهُ في زمن الملك دنجي سنة ٢٧٠٠ قبل المسيح ووجدت قطعة من الحجر الصلب كُتب عليها ان وزنها منا وانها معايرة مع منا نبوخذنصَّر ملك بابل بن نبوبولصَّر ملك بابل على المعيار الذي وضعهُ الملك دنجي . ووزن هذا المنا فاذا هو ٩٧٨ غراماً واذا فرض انهُ خسر غرامين بالاستعمال فوزنهُ الاصلي ٩٨٠ غراماً هذا هو المنا الاصلي او السلطاني وكان عندهم منًا آخر وزنهُ نحو ٥٦١ غراماً

وكانت قطع النقود توزن وزنًا في اول الامر كما تقدَّم ثم صار وزنها محدوداً ولكنها بقيت تعاير وقت التعامل بها خوفاً من الغش . ثم صار ينقش عليها زنتها وقيمتها . والظاهر ان البابليين فعلوا ذلك من عهد ابرهيم الخليل وكان عندهم نقود مختلفة في زمن نبوخذنصَّر قيمة الواحد منها شاقل او خمسة شواقل او خمسة اسداس المنا او ثلثاهُ او ثلثهُ او نصفهُ او ربعهُ او ثلاثة ارباعهِ . ومن رأي الاستاذ سايس ان البابليين هم اول من استنبط سك النقود وان الليديين واليونانيين تعلموا ذلك منهم

وقد ظهر من المكتشفات الحديثة انهُ وجد في بابل بيت مالي آخر مثل بيت اجيبي قبل المسيح بالفين وسبع مئة سنة ولكن كانت التجارة في ايامهِ مقتصرة على حاصلات البلاد كالغنم والبقر والصوف والحبوب والتر والقار . وسيأتي الكلام على اشياء اخرى من مقومات العمران البابلي